

قصصه الأخرى - يؤكد إيمانه بالقدر ، كنصيب لايرحم ، مكتوب منذ الأزل .

بعد اثنين وعشرين عاما من التجوال يعود شريف الى بلده شيخا محطما يحمل مجمره الأفيون وزجاجة الخمر ، وبدون أى حماس أو أية حمية يود لو يقضى بقية حياته فى دعة وسلام ، كان شريف يقاسى طوال حياته من ثلاثة أمور : أدبه الفطرى ورقته ومظهره غير المقبول وحقيقة أنه لم يكن ندلا أو وقحا كبقية من يعملون معه ، ولأنه لم يكن يستطيع الاختلاط بهؤلاء الناس لم يكن يستطيع أن يندمج فى حياة بلده ، وذلك لأنه : « بعد عودته ، كان كل شيء يبدو صغيرا أمامه ، صفيقا ومتشجنا وسطحيا ، كان كل انسان يبدو وكأنه ممزق ، وكان يبدو وكأنهم فقدوا شبابهم ، وكانهم فقدوا سحرهم ، لكنهم دربوا على الحفر بأصابعهم أكثر عمقا فى الحياة ، فكانوا أكثر اربابا وأكثر اعتقادا فى الخرافات وأكثر انانية عن ذى قبل ، نجح بعضهم بشكل أو بآخر فى تحقيق أماله الصغيرة ، كبرت بطونهم وبرزت وانتقلت شهواتهم من بطونهم الى فكاكهم ، ولقسوة حياتهم وانقلابها طبقوا كل ذكائهم فى الغش ، يسرقون مستأجريهم ، ويكدسون القطن والأفيون والقمح وحتى التيل من أجل اولادهم ومن أجل النقرس المزمع » .

وفى حياة شريف غير المليئة بالأحداث ، هناك ذكرى واحدة موحية ، صداقة شبابه مع محسن ، كان محسن فيما يبدو هو الوحيد الذى لايعبأ بمظهر شريف القبيح ، وفوق ذلك كان معجبا بفضائله ، وكان يبدى اهتماما حقيقيا به ، ومن ناحية أخرى كان شريف يحس ببعض الحب الأخوى نحوه والايثار ، بحيث « كان حضور محسن يبدو كنوع من عبادة الجمال عنده » ، لكن هذا الصديق العزيز تلاشى فجأة أمام عين شريف ، غرق فى البحر ، ومنذ ذلك الوقت